ويستحسن الا يجهز من اللبن في المرة الواحدة الا المقدار الكافي لمرة واحدة للتأكد من نقاوة اللبن لأنه مهما كانت العناية باللبن بعد تحضيره فضل غليه قبل اعطائه للطفل

منيره محمود صبري

صراخ القبور (١)

١

تربّع الامير على منصة القضاء مجلس عقلاء بلاده عن يمينه وشماله وعلى وجوههم المتجعدة تنعكس أوجه الكتب والاسفار . وانتصب الجند حوله ممتشقين السيوف رامين الرماح . ووقف الناس أمامه بين متفرج اتي به حب الاستطلاع ومترقب ينتظر الحكم في جريمة قريبة وجميعهم قد أحنوا رقابهم وخشعوا ببصائرهم وأمسكوا انفاسهم كأن في عيني الامير قوةً توعز الخوف وتوحي الرعبة الى نفوسهم وقلوبهم حتى اذا ما اكتمل المجلس وازفت ساعة الدينونة رفع الامير يده وصرخ قائلاً « أحضروا المجرمين واحداً واحداً واخبروني بذنوبهم ومعاصيهم » . ففتح باب السجن و بانت جدرانه المظلمة مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر عندما يفتح فكيه متثائباً . وتصاعدت من جوانبه قاقلة القيود والسلاسل متآلفةً مع انين الحبساء ونحيبهم . فحوّل الحاضرون اعينهم وتطاولت اعناقهم كأنهم يريدون مسابقة الشريعة بنواظرهم ليروا فريسة الموت خارجة من أعماق ذلك القبر

و بعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان فتىً مكتوف الساعدين ينكلم وجهه العابس وملامحه المنقبضة عن عزة في النفس وقوة في القلب . واوقفاه وسط المحكمة وتراجعا قليلاً الى الوراء . فأحدق به الامير دقيقةً ثم سأل قائلاً « ما جريمة هذا الرجل المنتصب امامنا برأس مرفوع كأنه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة »

(١) منقولة بتصرف عن جبران خليل جبران

فاجابه رجل من أعوانه قائلاً

« هو قاتل شتريز قد اعترض بلامس قائداً من قواد الامير وجندله صريعاً اذ كان ذاهباً بمهمة بين القرى وقد قبض عليه والسيف المغمد بدماء القتيل مازال مشهوراً في يده »

فتحرك الامير غضباً فوق عرشه وتطايرت سهام الحنق من عينيه وصرخ بأعلى صوته قائلا أرجعوه الى الظلمة واثقلوا جسده بالقيود وعندما يجيء فجر الغد اضربوا عنقه بحد سيفه ثم اطرحوا جثته في البرية لتجردها العقبان والضواري وتحمل الرياح رائحة نتانتها الى أنوف أهله ومحبيه »

ارجعوا الشاب الى السجن والناس يتبعونه بنظرات الاسف والتنهيدات العميقة لانه كان فتى في ربيع العمر حسن المظاهر قوي البنية

وظهر الجنديان ثانية يقودان كهلا ضعيفاً يسحب ركبتيه المرتعشتين كأنهما خرقتان من أطراف ثوبه البالي ويلتفت جزعاً الى كل ناحية ومن نظراته الموجفة تنبعث خيالات البؤس والفقر والتعاسة

فالتفت الامير نحوه وقال بلهجة الاشمئزاز « وما ذنب هذا القذر الواقف كالميت بين الاحياء »

فأجابه أحد الجنود قائلا « هو اص سارق قد دخل الدير ليلا فقبض عليه الرهبان الاتقياء ووجدوا طي ثوبه آنية مذابحهم المقدسة »

فنظر اليه الامير نظرة النسر الجائع الى عصفور مكسور الجناحين وصرخ قائلا « انزلوه الى اعماق الظلمة وكبلوه بالحديد وعند مجيء الفجر جروه الى شجرة عالية واشنقوه بحبل من الكتان واتركوا جسده معلقاً بين الارض والسماء فتنثر العناصر اصابعه الاثيمة نثراً وتذري الرياح اعضاءه نتفاً »

ارجعوا اللص الى السجن والناس يهمسون بعضهم في آذان بعض قائلين « كيف تجرأ هذا الضعيف الكافر على اختلاس آنية الدير المقدسة »

ونزل الامير عن كرسي القضاء فأتبعه العظماء والمشرعون وسار الجند خلفه وأمامه وتبدد شمل المتفرجين وخلا ذلك المكان الا من عويل المسجونين

وزفرات القانطين المتمايلة كالخيالات على الجدران

جرى كل ذلك وأنا واقفٌ هناك وقوف المرآة على الاشباح السائرة مفكراً بالشرائع التي وضعها البشر للبشر . متألماً بما يحسبه الناس عدلا . متعمقاً بأسرار الحياة باحثاً عن معنى الكيان . حتى اذا ما تضعضعت افكاري مثلما تتوارى خطوط الشفق بالضباب خرجت من ذاك المكان قائلا لذاتي (الاعشاب تمتص عناصر التراب . والخروف يلتهم الاعشاب . والذئب يفترس الخروف . ووحيد القرن يقتل الذئب والاسد يصيد وحيد القرن . والموت يفني الاسد . فهل توجد قوة تتغلب على الموت فتجعل سلسلة هذه المظالم عدلا سرمدياً ؟ . . . أتوجد قوة تحول هذه الاسباب الكريهة الى نتائج جميلة ؟ أتوجد قوة تقبض بكفها على جميع عناصر الحياة وتضمها الي ذاتها مبتسمة مثلما يرجع البحر جميع السواقي الى اعماقه مترنماً أتوجد قوة توقف القاتل والمقتول والسارق والمسروق منه أمام محكمة أسمى وأعلى من محكمة الامير ؟

٢

وفي اليوم الثاني خرجت من المدينة وسرت بين الحقول حيث تبيح السكينة للنفس ماتسرّه النفس ، ويميت طهر الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولدها الشوارع الضيقة والمنازل المظلمة . ولما بلغت طرف الوادي التفت فاذا بأجواق كثيرة من العقبان والغربان والنسور تتطاير تارة وتهبط طوراً . وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيرها وخفيف اجنحتها . فتقدمت قليلاً مستطلعاً فرأيت امامي جثة رجل معلقة على شجرة عالية ، وجثة فتى غارقة بالدماء المجبولة بالتراب وقد فصل رأسها عنها

وقفتُ وهول المشهد يغشي بصيرتي بنقاب كثيف مظلم ونظرتُ فلم أرَ سوى خيال الموت المريع منتصباً بين الجثث الملطخة بالدماء . واصغيتُ فلم أسمع غير عويل العدم ممزوجاً بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع البشر

اثنان من أبناء آدم كانا بالامس على احضان الحياة فاصبحا اليوم في قبضة الموت

اثنان اساءا بعرف البشر الى الناموس فمدت الشريعة العمياء يدها وسحقتهما بقساوة

اثنان جعلهما الجهل مجرمين لانهما ضعيفان فجعلتهما الشريعة أمواتاً لانها قوية

ورجل فتك برجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم وعند ماقتك به الامير قال الناس هذا امير عادل

ورجل حاول أن يسلب الدير فقال الناس هذا لص شرير . وعند ماسلبه الامير حياته قالوا هذا أمير فاضل

سفك الدماء محرّم . ولكن من حلله للامير؟

سلب الاموال جريمة . ولكن من جعل سلب الارواح فضيلة ؟

أنقابل الشر بشر أعظم ونقول هذه هي الشريعة . ونقاتل الفساد بفساد اعم ونهتف هذا هو الناموس . ونغالب الجريمة بجريمة اكبر . ونصرخ هذا هو العدل؟

أما صرع الامير عدواً في غابر حياته ؟ أما سلب مالا أو عقاراً من أحد تابعيه الضعفاء ؟ هل كان معصوماً عن هذه المحرمات فجاز له اعدام القاتل وشنق السارق؟

ومن هم الذين رفعوا هذا اللص على الشجرة ؟ أملائكة نزلوا من السماء أم رجال يغتصبون ويسرقون كل ماتصل اليه ايديهم ؟

ومن قطع رأس هذا القاتل ؟ أانبياء هبطوا من العلاء أم جنود يقتلون ويسفكون الدماء أينما حلوا ؟

الشريعه — وما هي الشريعة ؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشريّ رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر . وفي أي جيل من الاجيال سار الملائكة بين الناس قائلين « احرموا الضعفاء نور الحياة ، واقتلوا الساقطين بحد السيف ، ودوسوا الخطأة بأقدام من حديد »

وظلت هذه الافكار تتزاحم على فكرتي وتتسابق عواطفي حتى سمعت وطء اقدام قريبة مني فنظرت واذا بصبية قد ظهرت من بين الاشجار واقتربت من الجثث الثلاث متحفزة متلفتة بخوف الى كل ناحية . حتى اذا مارأت رأس الفتى المقطوع صرخت جزعاً وركعت بجانبه وطوقته بزنديها المرتجفتين ، وأخذت تستفرغ الدموع من عينيها ، وتلامس شعره الجعدي باطراف أصابعها وتنتحب بصوت عميق جارح خارج من صميم الكبد ، ولما انهكها البكاء وغلبتها الحسرات ، اسرعت

تحفر التراب بيديها حتى اذا ماحفرت قبراً وسيعاً وجرّت اليه الفتى المصروع وسددته على مهل موجع ووضعت رأسه المفرج بالدماء بين كتفيه و بعد ان غمرته بالتراب غرست نصل السيف الذي قطع عنقه على قبره ، واذ همّت بالانصراف تقدمتُ نحوها فاجفلتْ وارتمشتْ خوفاً ثم اطرقت والدمع السخين يتساقط كالمطر من مقلتيها وقالت متنهدة « اشكني الى الامير ان شئت فخير لي ان أموت وألحق بمن خلصني من قبضة العار من أن اترك جسده طعاماً لقشاعم الطير و لوحوش الكواسر » فأجبتها قائلا . لاتخافي مني أيتها المسكينة . فانا قد ندبت حظ فتاك قبلك بل خبريني كيف انقذك من قبضة العار »

فقالت والغصص تقطع صوتها « جاء قائد الامير الى حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجزية ولما رآني نظر اليّ نظرة استحسان مخيفة ثم فرض ضريبة باهظة على حقل والدي الفقير يعجز الغني عن دفعها فقبض عليّ ليقتادني قهراً الى صرح الامير بدلا من الذهب فاسترحمته بدموعي فلم يحفل واستحلفته بشيخوخة والدي فلم يرحم فصرخت مستغيثة برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيبي وخلصني من بين يديه القاسيتين فاستشاط غضباً وهمّ ان يفتك به فسبقه الشاب وامتشق سيفاً قديماً معلقاً على الحائط وصرعه به مدافعاً عن حياته وعن عرضي ، ولكبر نفسه لم يفر هارباً كالقتلة المجرمين بل لبث واقفاً بقرب جثة القائد الظلوم حتى جاء الجند وساقوه الى السجن مكبلا بالقيود »

قالت هذا ونظرت اليّ نظرة تذيب الفؤاد وتثير الشجون وولت مسرعة ورنات صوتها الموجعة تولد بين تموجات الاثير اهتزازاً وارتعاشاً

و بعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدي خرقاً بالية ووقفت بقرب المشنوق تقرع صدرها باكية ثم تسلقت الشجرة وقضمت حبل الكتان باسنانها فسقط الميت على الارض سقوط الثوب البليل . فنزلت المرأة وحفرت قبراً بجانب القبر ووضعته فيه . و بعد ان غمرته بالتراب أخذت قطعتين من الخشب وصنعت منها صليباً وغرسته فوق رأسه . ولما تحولت نحو الوجهة التي جاءت منها اوقفتها قائلا « ماغرك أيتها الامرأة فجئت تدفنين لصاً سارقاً »

فنظرت اليَّ بعينين غارقتين مكحولتين باشباح الكآبة والشقاء وقالت « هو زوجي الصالح ورفيقي الحنون ووالد أطفالي — خمسة أطفال يتضورون جوعاً اكبرهم في الثامنة واصغرهم رضيع لم يفطم . . . لم يكن زوجي اصاً بل كان زراعاً يفلح ارض الدير و يستغلها ولا يحصل من الرهبان الا على رغيف نتقاسمه عند المساء ولا تبقى منه لقمة الى الصباح . . . مذ كان فتى وهو يستقي بعرق جبينه حقول الدير و يزرع عزم ساعديه في بساتينه . ولما ضعف وانتهبت اعوام العمل قواه وراودت الامراض جسده ابعدوه قائلين (لم يعد الدير محتاجاً اليك فاذهب الآن وعندما يشب ابناؤك ابعثهم الينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل) . فبكى وابكاني امامهم واسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقديسين فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه وعليَّ وعلى صغارنا الجائعين فذهب يطلب عملاً في المدينة وعاد مطروداً الآن سكان تلك القصور لا يستخدمون إلا انفتيان الاقوياء ثم جاس على قارعة الطريق مستعطياً فلم يحسن الناس اليه بل كانوا يمرون به قايلين (الصدقة لا تجوز على مغلوب التواني والكسل) ففي ليلة وقد برح الجوع بنا حتى صار اطفالنا يتلوون جوعاً على التراب . والرضيع بينهم يمص ثديي ولا يجد لبناً . تغيرت ملامح زوجي وذهب مستتراً بالظلام ودخل قبواً من اقبية الدير حيث يخزن الرهبان غلة الحقول وخمر الكروم وحمل زنبيلاً من الدقيق على ظهره وهم بالرجوع الينا لكنه لم يسر بضع خطوات حتى اسقيط القدس من رقادهم وقبضوا عليه واوسعوه ضرباً وشتماً وعند ما جاء الصباح اسلموه الى الجند قائلين (هو لص شرير جاء لكي يسرق آنية الدير الذهبية) فاقتاده الجند الى السجن ثم الى المشنقة ليملأوا أجواف العقبان من جسده لانه حاول ان يملأ اجواف صغاره الجياع من فضلات الغلة التي جناها باتعابه اذ كان خادماً للدير »

وذهبت المرأة الفقيرة وكلامها المتقطع اشباح محزنة تتصاعد وتتسارع الى كل ناحية كأنها اعمدة من الدخان يتلاعب بها الهواء .

* * *

وقفت بين القبور وقفة مؤبن ارتج عليه وانعقد لسانه لوعة فانسكب دمعه متكلماً عن عواطفه . وحاولت التفكر والتأمل فعصتني نفسي لان النفس كالزهرة تضم

أوراقها امام الظلمة ولا تعطي انفاسها لخيالات الليل

وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ التظلم انبثاق الضباب من خلايا الاودية ويتموج حول مسامعي ليوحي الى الكلام

وقفت سامعاً ولو فهم الناس ما تقوله السكينة لكانوا اقرب الى الالهة منهم الى كواسر الغاب

وقفتُ متنهداً ولو لامست شملات تنهيداتي شجار ذلك الحقل لتحركت وتركت اماكنها وزحفت كتائب وحاربت بقضبانها الامير وجنوده وهدمت بجذوعها جدران الدير على رؤوس رهبانه

وقفت ناظرا ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة — قبر فتى دافع بحياته عن شرف عذراء ضعيفة وانقذها من بين اظافر ذئب كاسر فقطعوا عنقه جزاء شجاعته . وقد اغمدت تلك الصبية سيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزاً يتكلم امام وجه الشمس عن مصير الرجولة في دولة الحيف والغباوة — وقبر فقير بائس اوهت ساعديه حقول الدير فطرده الرهبان ليستميضوا عنها بسواعد غيره . فطلب الخبز لصغاره بالعمل فلم يجده . ثم رجاه بالتسول فلم ينله . وعندما دفعه اليأس الى استرجاع قليل من الغلة التي جمعها باتعابه وعرق جبينه قبضوا عليه وفتكوا به . وقد وضعت ارملته صليباً على قبره ليستشهد في سكينة الليل نجوم السماء على ظلم رهبان يحولون تعاليم الناصري الى سيوف يقطعون بها الرقاب ويمزقون بحدودها السنينة اجساد المساكين والضعفاء

وتوارت الشمس اذ ذاك وراء الشفق كأنها مأت متاعب البشر وكرهت ظلمهم وابتدأ المساء يحيك من خيوط الظل والسكون نقاباً دقيقاً ليلقيه على جسد الطبيعة فرفعت عيني الى العلاء وبسطت يدي نحو القبور وما عليها من الرموز وصرخت باعلى صوتي « هذا هو سيفك ايتها الشجاعة فقد اغمد بالتراب . وهذا هو صليبك يايسوع الناصري فقد غمرته ظلمة الليل